

سلسلة { يَا صَاحِبِي السُّجُنْ } -2 توحيد الله .. حق الله على العباد "العروة الوثقى"

أبو محمد المقدسي

اعلم - رحمك الله تعالى - أن أول ما فرض الله على العباد تعلمه والعمل به قبل الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الفرائض هو التوحيد قال تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله} [محمد:19] .

وأنه سبحانه لم يخلقهم أصلاً إلا لتحقيق هذا الأمر العظيم. قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات:56] . أي: ليوحدون؛ (يعبدونني وحدي) وهو معنى (لا إله إلا الله) فهي تعني أن لا معبود بحق إلا الله.

وأن ذلك هو الغاية التي بُعث من أجلها الرسل أجمعين قال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} فقوله تعالى: {أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} هو معنى (لا إله إلا الله)، لأنها تشتمل على النفي والإثبات، فالنفي هو: (لا إله) والإثبات وهو: (إلا الله)، و (لا إله): تتضمن اجتناب كل ما يعبد من دون الله، وهو الطاغوت إن كان راض بالعبادة⁽¹⁾ ، و(إلا الله): تتضمن إثبات العبادة لله وحده. ولا بد لتحقيق هذه الكلمة العظيمة من الجمع بين النفي والإثبات، فالنفي وحده كفر وتعطيل والإثبات وحده دون النفي لا يكفي لأنه قد يتضمن الإيمان بمعبودات أخرى مع الله، حتى يجمع العبد بين النفي والإثبات، فيعبد الله وحده ويتبرأ ويكفر بكل معبود سواه فعند ذلك فقط يحقق التوحيد الذي جاءت به الرسل أجمعون.

قال تعالى: {يُنذِرُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ}. [النحل:2] .

⁽¹⁾ وهذا القيد مهم؛ لأنه يخرج من مسمى الطاغوت من عُبد وهو غير راض بعبادة المشركين له كالملائكة وعزير والمسيح وغيرهم من الأنبياء والأولياء والصالحين فلا يسمون طواغيت ولا يتبرأ منهم لكن يتبرأ من عبادتهم ومن اعتقاد الوهيتهم.

وقال سبحانه: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا
نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}. [الأنبياء: 25].

وفي السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أفضل
ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله). [رواه
البخاري].

ومن أجل هذه الغاية العظمى كان النزاع بين الرسل
وأقوامهم وفيها كانت الخصومة والولاء والبراء والحب
والبغض والموالة والمعاداة، ومن أجله قتل كثير من
الأنبياء وأوذوا، وله عذب الصحابة وأوذوا في مكة قبل
فرض الصلاة والزكاة والحج وسائر الفرائض قال تعالى:
{وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر
كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب}. [ص:
4-5].

فقوله تعالى عن المشركين في استنكارهم أعظم ما
جاء به النبي صلى الله عليه وسلم: {أجعل الآلهة إلها
واحدا؟} هو معنى: (اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وهو
معنى: (لا إله إلا الله).

وهذه هي العروة الوثقى التي ضمن الله لعباده إن هم
استمسكوا فيها أن لا تنفصم، فلا تتم النجاة إلا بالاعتصام
بها، قال تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من
الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك
بالعروة الوثقى لا انفصام لها}. [البقرة: 256].

فقوله تعالى: {فمن يكفر بالطاغوت} هو النفي الذي
تضمنته (لا إله).

وقوله سبحانه: {ويؤمن بالله} هو الإثبات الذي
تضمنته (إلا الله).

فالعروة الوثقى التي لا ينجو المرء إلا بالاعتصام بها
هي (لا إله إلا الله).

وذلك أن عرى الإيمان كثيرة والناس تتشبهت بها أو
ببعضها، فمن مُتَشَبِهت بعروة الصلاة وحدها ومن متشبهت
بعروة الصدقة وأعمال البر وحدها، لكن ذلك كله لا يكفي
للنجاة دون العروة الوثقى، فلا نجاة أبداً إلا أن تكون هذه
العروة العظيمة (لا إله إلا الله) متحققة قبل جميع عرى

الإيمان الأخرى إذ بدونها لا تقبل تلك العرى. ولذلك فإن فرعون عندما عاين الهلاك وأدركه الغرق لم يتثبت أو يلد إلا بها.. لكن كان ذلك بعد فوات الأوان. قال تعالى: {حتى إذا أدركه الغرق قال ءأمنت أنه لا إله إلا الذي ءأمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين}. [يونس:90].

ولعظم شأن التوحيد فقد صح في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن السماوات والأرض لو وضعت في كفة الميزان ووضعت (لا إله إلا الله) في الكفة الأخرى لرجحت بهن لا إله إلا الله.

ولذلك فليس هناك أعظم في دفع الشدائد من التوحيد، ألا ترى أن دعاء الكرب: (الله، الله ربي ولا أشرك به أحدا) ولذلك كان الأنبياء وهم أعلم الناس وأفقههم كانوا يلوذون في الشدائد بالتوحيد ويتوسلون إلى الله به، لعلمهم أنه ليس هناك أعظم قدراً عند الله منه، قال تعالى عن نبيه يونس: {فنادى في الظلمات (2) أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجينا من الغم وكذلك تنجي المؤمنين}. [الأنبياء:87-88]

إذا فهمت ما سبق من أهمية التوحيد (لا إله إلا الله) وعظم خطره وقدره وأن معناه توحيد الله بالعبادة، أي: أن لا معبود بحق إلا الله، فيجب عليك أن تتعلم معنى العبادة لتتمكن من توحيدها كاملة لله وتتجنب عبادة ما سواه سبحانه بأي نوع من أنواع العبادة، وبالتالي تحقق التوحيد كاملاً.

وكذلك يجب عليك أن تفهم معنى الشرك الذي هو ضد التوحيد لتجنبه.

واعلم قبل ذلك أن (لا إله إلا الله) لها شروط لا تصح إلا بها وهي:-

الأول: العلم بمعناها نفيًا وإثباتًا، قال تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله}.

الثاني: اليقين المنافي للشك، قال صلى الله عليه وسلم: (..أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله (3) خالصاً من قلبه أو نفسه). [رواه البخاري]

(2) ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت.

الثالث: الصدق المنافي للكذب، فهي لا تقبل ممن تلفظ بها كاذباً كالمنافقين، قال تعالى: {إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار}.

الرابع: الإخلاص المنافي للشرك قال تعالى: {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة} وسيأتي بيان الشرك.

الخامس: المحبة لهذه الكلمة ولما دلّت عليه.

السادس: الإنقياد لحقوقها، قال وهب بن منبه: (لا إله إلا الله مفتاح الجنة ولكل مفتاح أسنان فمن جاء بمفتاح له أسنان فتح له، ومن جاء بمفتاح ليس له أسنان لم يفتح له) والأسنان هي حقوق لا إله إلا الله من أركان الإسلام وفرائضه وعرى الإيمان ولوازمه.

السابع: اجتناب نواقضها وهي كثيرة أخطرها الشرك بالله وسيأتي بيان بعض نواقضها.

واعلم أن هذا التوحيد يسميه أهل العلم (توحيد الألوهية) أو (توحيد العبادة) وهناك قسمان آخران يذكرهما العلماء هما:-

1- توحيد الربوبية: وهو اعتقاد أن الله هو الخالق الرازق المدبر، وهذا لا يكفي وحده للنجاة، فقد كان كفار قريش يؤمنون به ومع هذا لم يصيروا به مسلمين ولا حُقت دماءهم أو عصمت أموالهم حتى حققوا توحيد

⁽³⁾ فائدة: ذهب طوائف من أساطين أهل العلم إلى أن مثل هذه الإطلاقات التي وردت فيمن قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، أو حرم الله عليه النار. ونحو ذلك إنما كان في ابتداء الإسلام، حين كانت الدعوة إلى مجرد الإقرار بالتوحيد، فلما فرضت الفرائض، وُحِدَت الحدود نسخ ذلك، والدلائل على هذا كثيرة متظاهرة، وإلى هذا القول ذهب الضحاك، والزهري، وسفيان الثوري وغيرهم.

وقال طائفة أخرى: لا احتياج إلى ادعاء النسخ في ذلك، فإن كل ما هو من أركان الدين، وفرائض الإسلام هو من لوازم الإقرار بالشهادتين، وتيماته، فإذا أقرتم امتنع عن شيء من الفرائض جحداً، أو تهاونا على تفصيل الخلاف فيه حكماً عليه بالكفر، وعدم دخول الجنة، وهذا القول أيضاً قريب.

وقالت طائفة أخرى: التلطف بكلمة التوحيد سبب يقتضي دخول الجنة والنجاة من النار، بشرط أن يأتي بالفرائض، ويحْتَبِ الكبائر، فإن لم يأت بالفرائض، ولم يَحْتَبِ الكبائر لم يمنع التلطف بكلمة التوحيد من دخول النار، وهذا قريب مما قبله، أو هو هو. والله سبحانه وتعالى أعلم. [الترغيب والترهيب 2/413، 414].

العبادة وتبرؤوا من آلهتهم الباطلة قال تعالى عنهم: {ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله...}.

2- توحيد الأسماء والصفات: وهو أن تصف الله بما وصف به نفسه من غير تشبيه ولا تمثيل ومن غير تكيف أو تعطيل، وأن لا نصف أحداً غيره بشيءٍ من صفاته.

الشرك: اعلم أن أعظم ذنب عصي الله به هو الشرك قال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} وقد سُئِلَ النبي صلى الله عليه وسلم عن أعظم الذنوب فقال: (أن تجعل لله نداً وقد خلقك) وهو محبط لكل الأعمال قال تعالى: {لئن أشركت ليحبطن عملك}، والشرك نوعان: أكبر وأصغر.

أما الشرك الأصغر: فهو كيسير الرياء والحلف بغير الله تعالى كمن يحلف بالنبي أو بالكعبة أو الشرف أو نحوه فهذا شرك أصغر إلا أن يعتقد أن الذي يحلف به أعظم من الله فيكون شركاً أكبراً، ويظهر ذلك من استهانتهم بالحلف بالله ومهانتهم وخوفهم إذا حُلفوا بمحوباتهم الأخرى.

أما الشرك الأكبر: فهو أن يتخذ مع الله معبوداً آخر يشركه معه في أي نوع من أنواع العبادة فيسجد له أو يصلي أو يدعوه أو يرجوه أو يخافه كما يرجو ويخاف الله أو يحبه كحب الله أو يستغيث به في دفع الضر وطلب النفع فيما لا يقدر عليه إلا الله أو يتابعه ويطيعه في التشريع والتحليل والتحريم فكل ذلك شرك بالله العظيم، ومن هذا تعرف أن الشرك نقيض التوحيد، فقد يكون في (الألوهية) وقد يكون في باب الأسماء والصفات: بأن يُصف الله ببعض صفات خلقه فيقول يد الله كأيدي الخلق والله يقول وأصفاً نفسه {ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير} أو يصف غير الله ببعض صفاته سبحانه أو يشتق له اسماً من أسماء الله كما كان المشركون يسمون العزى من العزيز.

وترك الصلاة من الأمور التي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تُوقع بالشرك فقال: (إن بين الرجل وبين الشرك، والكفر، ترك الصلاة). [رواه مسلم في كتاب الإيمان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم].

توحيد الله .. حق الله
على العباد

أسأل الله تعالى أن يُعيدنا وإياك من الشرك فقد قال
تعالى: {إنه من يشرك بالله فقد حَرَّمَ الله عليه الجنة}.

أبو محمد عاصم المقدسي
سجن قفقاً - الأردن - ربيع الثاني 1415.

منبر التوحيد والجهاد

* * *

tth
tth
tth
tth
tth